المحاضرة العاشرة: الخطاب ومناهج التحليل: البنيوي

نستهل اليوم محاضرتنا العاشرة حول "الخطاب ومناهج التحليل: البنيوي ."إن الخطاب (Discourse)يمثل الوحدة الأساسية التي تتجسد فيها اللغة ضمن سياقها الاجتماعي والثقافي، مما يجعل دراسته ضرورية لفهم آليات التواصل وتشكيل المعنى في المجتمع. سنتناول اليوم إحدى أهم الأدوات المنهجية التي سعت إلى تفكيك هذه البنية المعقدة، وهو المنهج البنيوي(Structuralism) ، الذي يُركّز على الكشف عن الأنساق والقوانين الداخلية الكامنة في الخطاب.

أولا-المنهج البنيوي: النشأة والمفاهيم

1-نشأة البنيوية :

تعرف البنية بأنها "مفهوم يشير الى النظام المتسق الذي تتحد كل أجزاءه بمقتضى ربطة تماسك تجعل من اللغة مجموعة منتظمة من الوحدات أو العلامات التي تتفاضل ويحدد بعضها بعضا على سبيل التبادل،

يُعتبر عالم اللغويات السويسري فرديناند دي سوسير (1857-1913) الأب المؤسس للبنيوية بفضل كتابه المحوري "دروس في علم اللغة العام" (Cours de linguistique générale)، الذي نُشر بعد وفاته عام 1916. لقد أحدث سوسير "تحولًا كوبرنيكيًا" في دراسة اللغة عبر إرساء مفاهيم أساسية أصبحت الركائز التي قامت عليها البنيوية: كاللغة والكلام، الدال والمدلول، التزامن والتعاقب وغيرها. بعد إرساء سوسير للمنطلق اللغوي، انتقلت البنيوية، كمنهج في النظر إلى الظواهر بوصفها أنساقًا وعلاقات متفاعلة، إلى مجالات أخرى، وأبرزها:

- **الأنثروبولوجيا :**مع كلود ليفي ستراوس (Claude Lévi-Strauss) الذي طبّق المنهج البنيوي لتحليل الأساطير، القرابة، والثقافة، معتبرًا إياها أنظمة دلالية شبيهة باللغة.

يقول (ليفي ستراوس)" :إن وظيفة البنيوية هي الكشف عن البنى الخفية التي تولّد الظواهر الملحوظة".

• **الأدب والنقد :**مع رومان ياكوبسون (Roman Jakobson) والنقاد الفرنسيين (مثل رولان بارت وتزفيتان تودوروف) الذين استخدموا آليات التحليل اللغوي لتقطيع النص الأدبي إلى مستوياته وعلاقاته الداخلية، معتبرين النص الأدبي بنية مغلقة قائمة بذاتها.

• **الفلسفة والتحليل النفسي :**حيث ظهرت تيارات مختلفة متأثرة بالبنيوية (مثل جاك لاكان ولوي ألتوسير وميشيل فوكو في مرحلته المبكرة).

في جوهرها تهدف البنيوية إلى دراسة الظواهر الإنسانية باعتبارها نظامًا ذا قوانين داخلية خاصة، يتم التركيز فيه على العلاقات المتبادلة بين العناصر بدلاً من التركيز على العناصر ذاتها.

2-المفاهيم المحورية للبنيوية:

أ-الكلية:(Totality)

يُنظر إلى النص أو الخطاب بوصفه بنية متكاملة ومغلقة؛ أي نظاماً لا يمكن اختزاله إلى مجموع أجزائه. "البنية هي كلٌ لا ينتظم على مجموع من الأجزاء، بل الأجزاء تنتظم في الكل. إن البنية تُعرّف بالعلاقات التي تُنشئها عناصرها فيما بينها، وتكون هذه العلاقات ذات أولوية على العناصر نفسها".

الشرح والتحليل:

- **التحليل البنيوي** لا يدرس العناصر منفردة (مثل كلمة أو جملة)، بل يبحث عن القوانين الداخلية التي تربط هذه العناصر وتُكسبها قيمتها.
- بالنسبة لتحليل الخطاب، يعني هذا أن معنى الخطاب الكلي لا يتأتى من تجميع معاني الجمل، بل من النسق الذي تشكّله العلاقات بين المستويات المختلفة (الصوتية، التركيبية، الدلالية) داخل النص.
- إنه رفض للاختزال والمنهج التراكمي، حيث تُصبح **البنية (Structure)** هي المحدّد للمعنى.

ب-التحوّل:(Transformation)

هو قدرة البنية على توليد عناصر جديدة أو تغيير أشكالها دون أن تفقد البنية نفسها خصائصها الأساسية أو قوانينها الناظمة.

يقول جان بياجيه في تعريفه للبنية): "البنية نظامٌ يتضمن قوانين التحوّل، ولا ينتج هذه التحوّلات خارج حدود البنية، بل تحافظ على البنية وتُغنيها في آن واحد".

في الخطاب، يمكن تفسير هذا على مستوى التوليد الجملي؛ فاللغة كنظام (Langue) تسمح بتوليد عدد لا نهائي من الجمل الجديدة) الكلام(Parole - ، لكن هذه الجمل يجب أن تخضع لقوانين البنية النحوية والصرفية للغة ذاتها.

في التحليل السردي مثلاً، يمكن أن تتغير وظائف الشخصيات أو الأحداث (تحولات سردية)، لكن البنية العميقة للأسطورة أو الحكاية (مثل نظام الصراع بين الخير والشر) تبقى ثابتة، وهو ما طبقه ليفي ستراوس في تحليل الأساطير.

ج-التحكم الذاتي ومبدأ المحايثة

البنية نظام قادر على تنظيم ذاته وضبط علاقاته الداخلية دون الحاجة إلى مؤثرات خارجية، وهو ما يضمن استمرارية البنية.

"البنية تغلق على ذاتها، وتجد في ذاتها مبدأ تفسيرها) ".تعكس هذه المقولة المحايثة المنهجية التي تنادي بها البنيوية.

هذا المفهوم هو الذي يُبرر مبدأ المحايثة في التحليل البنيوي، أي دراسة الخطاب "في ذاته ولذاته." وبما أن البنية قادرة على ضبط نفسها، يجب على البنيوي أن يُجرد النص من السياق الخارجي (المؤلف، التاريخ، الظروف الاجتماعية) والتركيز فقط على شبكة العلاقات الداخلية بين العناصر النصية.

ثانيا-البنيوية وتحليل الخطاب :

تَنظر البنيوية إلى الخطاب باعتباره نسقًا أو نظامًا محكومًا بمجموعة من العلاقات الداخلية الخفية التي تربط بين وحداته البنائية. فالخطاب، وفق هذا المنظور، ليس مجرد تتابع للجمل، بل هو بنية لغوية متكاملة تُنتج معناها من خلال تضافر هذه العلاقات على مستويات مختلفة (صوتية، صرفية، نحوية، ودلالية). هدف التحليل هنا هو كشف القوانين التي تُنظّم هذا النسق الداخلي وتُكسب كل عنصر

فيه قيمته الخاصة، على اعتبار أن قيمة أي جزء تُحدّد من خلال موقعه ضمن البنية الكلية للخطاب، وليس من خلال ماهيته المفردة.

ويُعدّ المنهج البنيوي منهجاً محايثاً (Immanent) بامتياز في تحليل الخطاب، وهو ما يعني أنه يركز حصرياً على البنية الداخلية للنص، متجاهلاً ومستبعداً أي مؤثرات خارجية. فالمعنى، بالنسبة للبنيوية، كامن في النص نفسه ولا يحتاج إلى البحث في عناصر خارجة عن حدوده. لذلك، يتم إقصاء عوامل مثل السياق الاجتماعي، الظروف التاريخية، قصدية المؤلف، أو نفسية الكاتب؛ لتبقى البنية المادية واللغوية للخطاب هي الموضوع الوحيد للدراسة، وذلك سعياً للوصول إلى وصف علمي وموضوعي للقوانين التي تُولّد النص أو الخطاب.

ثالثا- **نقد وتقييم المنهج البنيوي:**

- **نقاط القوة:**
  - التركيز على النص ذاته وإعادة الاعتبار للشكل الداخلي.
  - توفير أدوات إجرائية منهجية صارمة للتحليل.
- **نقاط الضعف/الانتقادات:**
  - إهمال السياق الخارجي (التاريخي، الاجتماعي، الأيديولوجي) للخطاب.
  - المبالغة في شكلانية التحليل والابتعاد عن القارئ.
  - صعوبة تطبيق آلياته على بعض أنواع النصوص أو الخطابات.